والنهي عن المنكر ، ومن شنئ الفاسقين وغضب الله — غضب الله له(١) » .

ولتقصيرنا في أداء هذا الواجب — ظهر فينا الفساد الذى جنى على كثير من آدابنا الاجتماعية ، وعاداتنا المرضية ، وأخلاقنا الإسلامية ، فمتى نثوب إلى رشدنا ، وننفذ أحكام شريعتنا ؟ ! ! ومتى ينجم فينا رجال أشداء على الباطل والظلم ليحيوا ما اندثر من السنن القويم ، ويجددوا ما رث من حبل الدين المتين ؟!! ، اللهم جدّد عزائمنا ، وابعث فينا مشبوب الهمم لإحياء مجد الإسلام ووصاياه وأحكامه ، وهيئ لنا من أمرنا رشدا(٢)

حسن أحمد الخطيب

(١) تفسير أبي السعود والبيضاوى ، وشنئه : أبغضه .

(٢) جاء في المقال السابق المنشور بالعدد ٦٠٤ من الرسالة ص٤٧ ، ٤٨ بعض الأخطاء المطبعية نصححها فيما يلي :

(أ) وعند الشافعي أقلها وهو دينار — صوابها : وعند الشافعي أقلها محدود وهو دينار .

(ب) على مخالفيه من الذمة والكتاب — صوابها : على مخالفيه من أهل الذمة والكتاب .

توماس هـــوبز

لالفرد فيبر

للأستاذ عبد الكريم الناصرى

كان توماس هوبز (١٥٨٨ — ١٦٧٩) المولود في مالسبرى ، من أعمال ولتشاير ، صديقاً مخلصاً لآل ستيوارت ، وكان ذا حظوة عندهم ، بفضل نفوذ تلميذه اللورد كافندس .

وقد غاب فيلسوفنا عن وطنه ثلاثة عشر عاما ، فلما عاد إليه انقطع للبحث والتأليف(١) .

غطت شهرة هوبز كمؤلف سياسي وأخلاقي — إلى حدما — على شهرته كأنطلوجي ونفساني ؛ وبغير الحق ، فانه السابق Forerunner إلى المادية ، والنقد ، والوضعية الحديثة .

(١) جمع مؤلفاته اللاتينية والانجليزية ، ونشرها مولورث Molesworth في ١٦ مجلدا — لندن (١٨٣٩ — ١٨٤٥) .

يحد هوبز الفلسفة بأنها الاستدلال على المعلولات من العلل ، وعلى العلل من المعلولات(١) .

والتفلسف هو التفكير الصحيح ؛ ولكن التفكير معناه « أن تركب وتحل التصورات Concepts ، أن تجمع أو تطرح ، أن تحسب وتعد . فالتفكير الصحيح إذن هو تأليف ما يجب أن يؤلف ، وتفريق ما يجب أن يفرق . ويلزم عن هذا أن الفلسفة ليس لها من موضوع سوى الأشياء القابلة للتركيب والتجزئة ، وهى « الأجسام »(٢) . أما الملائكة ، والأشباح والأرواح المحض والله ، فليست بموضوعات للفكر والعلم ، ولا شأن للفلسفة بها ، وإنما هى موضوعات للدين والإيمان ، ومردها إلى اللاهوت . وبحسب انقسام الأجسام إلى أجسام طبيعية وصناعية ، وأجسام أخلاقية وسياسية ، تنقسم الفلسفة إلى : فلسفة طبيعية (المنطق ، والأنطلوجيا ، والرياضيات ، والفيزياء) وفلسفة سياسية (الأخلاق والسياسة) . والفيزياء والفلسفة الأخلاقية كلتاهما علم تجربى ، موضوعه الأجسام ، وآلته الحس — الحس الظاهر للأول ، والحس الباطن للثانى . وليس وراء علم الملاحظة observation من معرفة حقيقية(٣) .

إن هذه المقدمات تسلم هوبز إلى نظرية في الإدراك مادية من كل جهة . فالإدراك الباطن ، الذى هو أساس حياتنا الفكرية وشرطها الأول ، ليس إلا شعورنا أو إحساسنا بفعل الدماغ . فأن تفكر think هو أن تحس feel . والمعرفة تتكون من إضافة الأحاسيس . والإحساس ، بعد ، ليس إلا حركة تحصل في الجسم . ثم إن الذاكرة ، التى تلازم الفكر ، ليست شيئا أكثر من ديمومة الإحساس ؛ فتذكرك الشىء هو إحساسك بما سبق أن أحسست به(٤) . وليس من الممكن أن تعلل الإحساسات ، على طريقة بعض القدماء ، بأنها فيوض صادرة من الأجسام ومشابهة لها . إن أشباح الأجسام هذه ، أو — على حد تعبير المدرسيين — « أنواعها المحسوسة والمعقولة » ، لا تقل

(١) De Corpore, P .2

(٢) Id, P. 6

(٣) De Corpore

(٤) يسمى هوبز الذاكرة بالخيال أو التخيل أيضا (المعرب)

بطلانا عن « الـكيفيات المستورة » وأشباهها من فرضيات القرون الوسطى . وإنمــا الواجب أن نقول : إن الحركة البسيطة التى تثيرها الموضوعات الخارجية فى المادة المحيطة بها تنتقل إلى الدماغ بواسطة الأعصاب .

وهوبز يقرر هنا حقيقة خطيرة ، عرفها من قبل ديمقريطس ، وبروتاغوراس وأرستبس ؛ وهى أن الإدراك الحسى ذاتى بالكلية فإن ما ندركه — كالضوء مثلا — ليس بموضوع خارجى ألبتة ، وإنما هو حركة أو تـكيف يحدث فى المادة المخيــة . وليس أدل على ذلك من أننا نبصر ضوءاً إذا لُطمت العين ، إذ ليس هذا الإحساس إلا نتيجة التهيج الحاصل فى العصب البصرى . وما يصــدق على الضوء بوجه عام يصدق على تعيناته المختلفة التى هى الألوان . فالحواس إذن تخدعنا حــين تلقى فى روعنا أن الصوت والضوء والألوان تقوم خارج النفس . إن موضوعية الظواهر وهم خادع ، وليست صفات الأشياء غير أعراض لاحقة بكياننا ، وما من شيء موضوعى سوى الحركة التى تثير فينا هذه الأعراض ، وهى حركة الأجسام الخارجية [1] ... إن فيلسوفنا ليستدل كما استدل بعده « بركلى » ؛ بيد أن الأخير يسير بحجته إلى الن فإنه بعد أن يبدأ بمقدمات أهل الحس ، ينتهى إلى إنكار و الأجسام ، وإلى القول بالمثالية الذاتية . أما هوبز فيقف فى منته الطريق ، لأن شيئية reality المادة عنده عقيدة لا تقبل الشك

أما النفس soul أو الروح spirit فإنه يحدها أحيانا بأ فعل الدماغ ، وأحيانا بأنها مادة أو جوهر عصبى ؛ ويقول ذلك : إنى أقصد بالروح جسما فيزياويا يلطف عن إدراك الحوا أما الروح « اللاجسمانية » فحديث خــرافة . والتوراة ن لاتذكر موجوداً من هذا القبيل . إن الإنسان لايختلف pcr عن الحيوان إلا بالدرجة ، إذ كلاهما كائن جسمانى . وإذا كا من مزية advantage حقيقية على العجماوات ، فتلك هى النط إنا ، كهذه الأحياء الدنيا ، لا خيار لنا فيما نفعل ، وإنمــا تـ شهوات لا تقاوم ؛ وليس للعقل بغير انفعال ، ولا للمبـا الأخلاقية بغير جاذب مادى ، أدنى تأثير فى إرادة الإنسان ؛ هى مدفوعة بالخيــال وما يتوقعه ، وبالعواطف والانفعالا بالحب والبغض والخوف والرجاء .

نعم : « إن الفعل الإرادى هو الذى يصدر عن الإرادة ولــكن الإرادة نفسها ليست « إرادية » — إننا لا سلطان

---

(١) الـسطور التالية مترجمة (باختصار) عن الفصل الأول من الباب الأول من كتاب هوبز الموسوم (بالتين) : —

« كل فـكرة من فـكرنا فانما هى (تمثل) أو (بدو) لعرض من « أعراض » جسم أو موضوع خارجى فهذا الموضوع يؤثر فى حواسنا ، ومن تنوع تأثيره تنشأ أنواع التمثلات . فالاحساس إذن هو أصــل جميع فـكرنا وتصوراتنا .

« وعلة الاحســاس هى الجسم الخارجى ، أو الموضوع ، الذى يؤثر فى عضو الحس ، إما بلا واسطة ، كالحال فى الذوق واللمس ، وإما بواسـطة ، كالحال فى البصر والسمع والشم ؛ ثم إن هذا التــأثير ، أو الضغط ، ينتقل بواسطة الأعصاب والأوتار والأغشية إلى الدماغ والقلب ، ويحــدث فيهما مقاومة ، أوضغطاً مضاداً ، أو مجهودا ؛ وبما أن هذا المجهود موجه « نحو الخارج » . فانه يبدو كأنه مادة قائمة فى الخارج وهذا « البداء » ، أو « التوهم » هو ما يدعوه الناس إحساسا ؛ وهو بالاضافة إلى العين ضــوء أو لون ، وبالاضــافة إلى الأذن صوت ، وبالاضــافة إلى الأنف رائحة ، وبالاضافة إلى اللسان طعم ، وبالاضافة إلى سائر البدن حرارة أو برودة أو صلابة أو ليونة ؛ وسائر الـكيفيات التى تسمى شعورا أو إحساسا . وعلى ذلك فليست هــذه الـكيفيات والأعراض فى الموضوع نفسه ، وإنمــا هى حركات فى مادته ، وهو يؤثر بهذه الحركات فى آلاتنا (أعضائنا) الحسية ، على أنحاء شتى . بيد أن مايحدث فينا ، إنما هو، فى الحقيقة ، جملة حركات =

= إذ ليس تنتج الحركة إلا حركة وإنما تبدولنا هذه الحركات ضوء صوتاً ، من جهة التوهم فقط . وكما أننا نرى ضوءاً إذا فركت العين لطمت ، ونسمع دوياً إذا سدت الأذن ، فـكذلك تثير الأجسام الخار فينا أمثال تلك الـكيفيات بفعل تأثيرها الشديد ولــكن غير الملحوظ . كانت الأصوات والألوان فى الموضوعات نفسها ، لــما أمــكن فصلها الموضوعات ، مع أن هذا ممــكن ، كما هو مشاهد فى انعكاس الضوء الصوت (الصدى) ، إذ يكون الموضوع فى موضع ، وظهوره فى م آخر . وعلى ذلك فليس الحس ، فى جميع الحالات ، إلا توهما أصليا ، حركة الأشيــاء الخارجية ، وضغطها على عيوننا وآذاننا وآلاتنا ا الأخرى » بيــد أن مدارس الفلسفة ، فى جميع ديار النصرانية ، بمقالة أخرى ، مصدرها بعض نصوص من أرسطو ، فتقول فى علة ال إن الشيء المرئى يرسل إلى كل جانب « نوعا مرئيا » ، وقبول العين ل « الرؤية » وتقول فى علة السمع ، إن الشيء المسموع يرســل « مسموعا » ، يدخل الأذن فيحصل السمع بل تقول فى علة « الفهم الشيء المفهوم أو المعقول يبعث « نوعا معقولا » ، فاذا ولج العقل حد الفهم لدينا . وهذا كله كلام لا معنى له ولا محصل فيه » . المعرب